الرياح الآتية من الغرب هل تحمل الخير أخيرا للبنان؟

بقلم الكولونيل شربل بركات

بعد أكثر من ربع قرن من النضال ضد كل التيارات والمذاهب الفكرية والسياسية، وضد كل أشكال التنظيمات العسكرية والمليشياوية، يقف لبنان، ومعه الشرق بأكمله، منتظرا تلك الرياح القادمة من الغرب حاملة معها هموما أم انفراجات، وهي تتجمع في الأفق البعيد منذرة بعاصفة، فهل تكون غيمة صيف وتمر؟ أم إنها شتاء الرحمة على أرض الشرق الأوسط العطشى إلى السلام يأتيها بالخير، وينظف لمرة وحولها المصطنعة، ويجرف معه كل الكوابيس؟..

لقد يئس الناس من التنظير والكلام على المؤامرات تحضر لضرب الصفوف العربية، وخرق وحدتها، والهيمنة على أنظمتها، والسيطرة على ثرواتها، وإذا بهم يشعرون أن هذه الشعوب العربية لا تعرف من الوحدة إلا الاسم، ولا تعرف أي شيء عن استغلال ثرواتها، فهي إن لم يساعدها العارفون تموت من الجوع منتظرة رحمة الله، عز وجل، وكأنه، سبحانه، لا عمل له إلا إشباع أفواه أناس لا يعرفون العمل، ولا يوزعون غير الحقد وسيلة لتقتيل الناس إرضاء لاسمه، وكأنه أحد الآلهة القديمة التي لا ترضى إلا بالدم مشربة أو تقادم.

لقد سئم العالم من دعاة الحقد هؤلاء، الذين جعلوا دين الله وأنبياءه وسائل للقهر والإذلال، وكأن النبوة دعوة لتنظيمات عسكرية وإرهابية تنتظر أوامر القتل والنهب والتنكيل بالناس، خلائق الله وأبناؤه، لكي يرضى أحد المعقدين النائمين على بقايا بالية لتفسيرات لغوية للكتب السماوية، هي بالتأكيد براء منها، وتحليلات لكلام الله من زاوية حاقدة منغلقة ترمي الآخرين بما تعج نفسها من الضلال، وتسمح بكل ما يرضيها من الشر لوقف تقدم البشرية، لا لشيء إلا لأنها لم تستطع أن تلحق بالركب الحضاري الذي يرتقي كل يوم بالإنسان ليحاكي الخالق ويقدم نموذجا جديدا لعمل الله المبدع جاعلا الإنسان مساعدا لله في إدارة الكون ومتحملا مسؤولية كبرى في العمل الدؤوب نحو الأفضل. بمثل هؤلاء القتلة يعج التاريخ، ولكنه يمتلئ أيضا بالأمثلة عن كيفية القضاء عليهم، فهم أنفسهم بجموحهم يصطدمون بمن هو أقوى منهم فيقضى عليهم ويغيبون، ولكن بعد أن يكون الأبرياء من الناس قد دفعوا ثمن حقدهم. فهل إن الثمن قد اكتمل الآن وبات يوم القضاء عليهم قريبا؟ أم أن الفاتورة لا تزال غير كافية ويجب الانتظار بعد؟..

ليس الكلام هنا كلام على الأنظمة البالية والديكتاتوريات التي مضى عليها الزمن، إنما الكلام هو عن هؤلاء الذين يزيد عددهم كل يوم في افتتاحيات الصحف اليومية، وفي المقالات الموزعة في كل دور النشر والإعلام، وفي برامج تقزز المتفرج، في محطات تلفزيونية، مثل "الجزيرة"

وغيرها ممن كنا نحلم بأنهم سيرفعون من شأن المواطن في دول العرب ليحاكي العصر والتطور فإذا بهم وسائل لنشر الحقد، ومراكب لنقل الفكر المتحجر يعود بنا إلى عصور الجهل والتخلف، حيث تسجن النساء، وتقتل الورود، وتكم الأفواه والموسيقى، ولا يلمع إلا السيف مزينا بالدماء تسيل في كل درب لتمجد ذلك الإله العتيق الذي يحب الدم ولا يرضى بغيره، وهو بالتأكيد يبعد عن الله بعد السماء عن جهنم.

ألا آن الأوان اليوم بعد أن تطور الشر إلى هذا الحد أن تهب رياح الرحمة فتمحيه من الوجود بادئة بلبنان، حيث كان مولده في الربع القرن الأخير، أم أن الرحمة الحقيقية يجب أن تنطلق، مرة أخرى، من نفس المكان، فتقوم وحدة من أبناء لبنان، لتزرع مفهوما حضاريا جديدا يحجم المتحجرين ويعيدهم إلى أوكارهم، ويطلق الخير، أفواجا من العاملين المنفتحين على الكل، المخترقين لحواجز التصلب والرجعية العمياء، والمناضلين في سبيل التحرر والحرية، يحررون الكلمة، لتشحذ الفكر وتنطلق به، سيل عارم ضد التقهقر، يساندها العالم المتحضر فتسود ساعة إذن قوة الحقيقة، وتضيء من جديد شعلة الشرق الذي ينير العالم، لا ذلك العاشق للظلمة والظلام، يطفئ بأيديه كل نور؟

فهل تكون رياح الغرب مؤشرا لهبوب عاصفة القوة لتقضي على الشر بسلاحه وتريح العالم منه؟ أم حافزا لانطلاق تيارات التطور في النفوس الخائفة والمنتظرة أن تأتيها رياح الرحمة من الغرب أو من السماء فتكون هي المحرك الأساسي للتغيير وتساهم بفعالية في التحول؟..

٢٠٠٢/٨/٢٥